

الفصل الأول

تراجم فلسفية

١

المتفلسفة يترجمون لأنفسهم

قدمنا في التمهيد أن العرب قرءوا ترجمة بَرَزَوِيَه الطبيب لنفسه كما قرءوا كتب جالينوس وقد أكثر فيها من الحديث عن تربيته وسلوكه ومؤلفاته وما صادفه من بعض المحن . فكان طبيعياً أن يتأثره بعض المتفلسفة من العرب في هذا الاتجاه . وأكبر مترجم لكتب جالينوس هو حُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ المَتَوَفَى سنة ٨٢٦٠/٨٧٣ م إذ كان يعجب به إعجاباً شديداً ، فكان طبيعياً أن يقتدى به في الحديث عن نفسه ، وأن يؤلف في ذلك بعض آثاره . وتصادف أنه وقعت له محنٌ من بعض نُظَرَائِهِ وأبناء حرفته . إذ كان يحترف الطب ، وقَرَّبَهُ منه المتوكل ، الخليفة العباسي المشهور ، فكانوا يتقمون عليه ذلك ، وما لبثوا أن أخذوا في الكيد له ، فادَّعَوْا أنه يمزق الصور الدينية . وما زالوا به حتى غضب عليه الجاثليق .

وكان هذا الصنيع يحدث ضيقاً شديداً في نفس حسين . فكتب رسالة صور فيها ما أصابه من المحن والشدائد في ذلك معبراً عن مدى حزنه . واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « طبقات الأطباء » بهذه الرسالة التي تعد أقدم نَصٍّ في ترجمة المتفلسفة لأنفسهم ، وهي تبدأ على هذا النمط .

« إنه لحقني من أعدائي ومضطهدي الكافرين بنعمتي ، الجاحدين لحقني ، الظالمين لي ، المتعدّين على من المحن والمصائب والشرو وما منعتني من النوم وأسهر عيني وأشغلني عن مهماتي . وكل ذلك من الحسد لي على علمي وما وهبه الله عز

وجلّى من علو المرتبة على أهل زمانى . وأكثر أولئك أهلى وأقربائى . فإنهم أول شروى وابتداء محبى ، ثم من بعدهم الذين علمتهم وأقربتهم وأحسنتم إليهم وأرفدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة وقرّبت إليهم علوم الفاضل جالينوس . فكافونى عوض المحاسن مساوئى بحسب ما أوجبه طباعهم وبلغوا بى إلى أقبح ما يكون من إذاعة أنحس الأخبار . . حتى ساءت بى الظنون وامتدت إلى العيون ، ووضع على الرصد . حتى إنه كان يحصى على ألفاظى ويكثر اتهامى بما دق منها مما ليس غرضى منه ما أومئوا إليه . فأوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملك فضلا عن أهل مذهبى ، وعملت لى المجالس بالتأويلات الرذلة .»

وحنين حزين فى مطلع الرسالة لأن من يكيدون له ، ويناصبون العدا ، من أهله وتلاميذه الذين كان ينتظر منهم العون على الحن لاتديبرها وحوك خيوطها . وكم يحزن النفس حقاً أن تكون اليد التى ينتظر منها الإنسان الشكر على ما قدم لصاحبها هى التى تستلّ عليه الآلة القاتلة ، وتحاول أن تطعنه الطعنة القاضية . وهو لون بغيض من ألوان أهون والذلة فى بعض الناس إذ يعود ما يتقدم إليهم من جميل عاملاً لا من نكران الجميل فحسب ، بل عاملاً من عوامل الفتك والإهلاك . وقد أعيا هؤلاء الجاحدين أن يأتوا حننين من قبل علمه ومهنته ، فأزوه من قبل دينه وعمقيدته ، والعقيدة مغيبة عن الناس . ومفروض أن من يعرفها فى الشخص ذوو قرباه ومن اتصلوا به من تلاميذه ، فإذا أجمعوا أمرهم على أن عقيدته فاسدة كانوا قد طعنوه الطعنة النجلاء .

ويحدثنا حنين أن الباعث للقوم على ذلك كله علمه وحسد ركب فى نفوسهم ، إذ رأوه ينقل عن جالينوس وفلاسفة اليونان آثارهم فى لغة عربية فصيحة ، لا الحن فيها ولا استغلاق ، بل بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم . ويعزى نفسه بما أصاب من منزلة بين أهل الأدب ، ثم يعود إلى الأسى والحسرة ، فإن

من يعادونه هم الأطباء النصارى الذين تعلموا على يديه ، وأنهم ليحاولون أن يتقصوا من علمه وفضله في الطب ، فيقولوا إنه ناقل ولا يحسن من هذه الحرفة شيئاً ، وفي الوقت نفسه يتعلمون عليه ، وإذا مرض أحدهم صار إليه . حتى يأخذ منه الدواء . ويذكر أنهم ستة وخمسون رجلاً ، وهم متفرقون في خدمة الأمراء والوزراء . ناقدون عليه منزلته من الخليفة المتوكل ، وما يزالون يوغرون الصدور عليه ، وهو لا يقابل ذلك إلا بالصبر وغيض الطرّف ، وإذا ذُكر أحدهم أمامه أنى عليه . لما يجمعه معه من الديانة والبلدة والصناعة ، ثم يقص علينا مكيده دبرها له معاصره المشهور : بختيشوع بن جبرائيل لدى الخليفة المتوكل ، فقد استطاع أن يقنع الخليفة بأنه زنديق ملحد في دينه . إذ أحضر لديه صورة للعذراء وابنها ، والملائكة تحف بهما ، وقبّلها أمامه مراراً . ثم قال له ادع حنين ، واعرضها عليه . وانظر ماذا يفعل ، وذهب من توة إلى حنين فذكر له أن الخليفة عرض عليه صورة للمسيح وأمه ، فبصق عليها ، وسرّ الخليفة من ذلك . ثم قال : فإذا عرضها عليك فاصنع بها صنيعي . وأنفذ حنين ما أشار به صديقه ، فغضب المتوكل عليه وأمر أن يُزجَّجَ به في السجن . ثم تصادف أن مرض المتوكل ، ولم يستطع بختيشوع ولا غيره أن يبرئنه من مرضه ، فقال : علىّ بحنين ، فوصف له دواءً كان سبب شفائه ، فعفا عنه .

والرسالة على هذا النحو خاصة بحنين حنين ، وهي نحن لا تشرف المجتمع الذي عاش فيه ، أو بعبارة أدق لا تشرف الأطباء من زملائه ، بل إنها تصممهم بأقبح ما يتصف به إنسان من حقد وكنود وأثرة ، حتى إنهم ليعمّون في سبيل غاياتهم عن كل معنى من معاني البر والرحمة ، بل إنهم ليتحولون إلى مخلوقات شريرة لا تعرف سوى الختل والغدر وما إلى ذلك من قبيح الصفات والشيم المكنونة في النفوس الحقيرة .

وإذا كان حنين متأثر في هذه الرسالة بما كتبه جالينوس عن بعض محنه فإن ميتافلسفاً آخر كان يعاصره هو محمد بن زكريا الرازي ، تأثر جالينوس لافيها كتبه

عن محنه أو تجاربه ، وإنما في كتبه عن سيرته وسلوكه الفلسفي ، فقد خلّف لنا رسالة وصف فيها سيرته الفلسفية .

والرازي أكبر أطباء عصره ومتفلسفته ، دبرَ مارستان (مستشفى) بلدته الرّميّ ثم دبرَ مارستان بغداد ، وخدم في غير بلاط ، وترك كثيراً من الآثار في الطب والفلسفة بفرعها ، توفي سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وقد تُرجم عدد من مؤلفاته إلى اللاتينية ، وظل إلى القرن السادس عشر حجة في الطب بالعالم الشرقي والغربي .

ورسالته في سيرته دفاع عن هذه السيرة وأنها حقاً سيرة فيلسوف أو متفلسف ، وهو يستهلها بأن ناساً عابوا عليه مداخلة الأمراء وأصحاب السلطان والتصرف في وجوه من المعاش . وقالوا إنه لا يسير سيرة سقراط وما أثر عنه من الزهد في الدنيا ومتاعها ، حتى إنه كان لا يشرب خمرًا ولا يأكل لحماً ولا أعقب نسلاً ، ومع ذلك فهذه السيرة لسقراط في رأيهم مخالفة لمجرى الطبع وقيام النسل وداعية إلى انقراض العالم وبوار البشرية وهلاكها . وردّ الرازي على ذلك بأن ما يقولونه عن سقراط غير صحيح في جملة . فقد كان يسير هذه السيرة في ابتداء أمره ، ثم انتقل عنها . فتزوج وحارب العدو وحضر مجالس اللهو ، ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار العالم .

ويستطرد الرازي من ذلك إلى بيان سيرته . وهي السيرة الفلسفية التي يرى أن يتصف بها محبّو العلم ومؤثروه ، فيقول إننا لم نخلق لإصابة اللذات الجسدية ، وإنما خلقنا لاقتناء العلم واستخدام العدل : والطبيعة والهوى يدعواننا إلى المتع الحسية . بينما يدعونا العقل كثيراً إلى رفض هذه المتع والعدول عنها إلى العدل والعلم اللذين طلبهما الله منا ، فإنه يكره الجور والجهل . وإن العاقل من حسب حساب آخرته وامتنع عن كل لذة تعقب ألماً أو ضرراً يعود عليه . وما دام العالم الآخر هو الدائم غير المنقطع فالمغبون من اشترى لذة بائدة هالكة بلذة باقية غير منقطعة ولا فانية . وقد أحل الله لنا جميع الطيبات . على أن من الفلاسفة من يترك كثيراً من المباحات لتمرين نفسه على ذلك وتعويداً عليها . ولما كنا لا نحب أن يقع بنا ألم

فإن من الواجب أن لا تؤلم غيرنا من الناس والحيوان، فلا نظلم ولا نتلذذ بالصيد ولا نكدّ البهائم إلا مع قصد ومذهب عقلي عادل . ويرى أن من حقنا قتل الحيوان المفترس والمؤذى مثل الحيات والعقارب ، كما أن من حق كل شخص أن يأكل اللحم وأن يمتنع عنه . وما دام الواجب أن لا يؤلم الإنسان غيره ، فينبغي أن لا يؤلم نفسه على نحو ما يصنعه الهند من التقرب إلى الله بإحراق أجسادهم وطرحها على الحدائد المشحوذة . والناس مختلفون ، منهم المترف الذي ربي في النعيم ، ومنهم البائس الفقير ، وليس سيان من ينشأ في غنى وترف ومن ينشأ في فقر وشظف ، وينبغي للفيلسوف أن تكون سيرته في طعامه وثيابه ومسكنه على الحد الأوسط من الاعتدال والامتناع عن الإسراف في اللذات .

ثم يأخذ الرازي في بيان سيرته وأنها تطابق هذه السيرة الفلسفية المعتدلة علماً وعملاً ، فأما العلم فقد ثابر على القراءة والدرس ، حتى أصبح متفلسفاً يؤلف في البرهان وفي العلم الإلهي وفي الطب الروحاني وفي المدخل إلى العلم الطبيعي وفي الزمان والمكان والمدة والدهر وفي شكل العالم والفلك وفي الجسم والنفس والمادة وفي الطب والكيمياء . ويسمى بعض كتبه ويقول إنها بلغت نحو مائتين . ثم يقول إنه في العمل أو الجزء العملي يجري على طريقة الفلاسفة ، وإذا كان يداخل السلطان فلأجل مداواته في مرضه ، أما في عافيته فإنه يؤانسه ويشير عليه بما فيه صلاح نفسه وصلاح الأمة . وهو بعد ذلك ليس عنده شره في جمع مال ولا سرف فيه ، ولا ميل لمخاصمات الناس ومنازعاتهم ولا رغبة في ظلمهم . أما مطعمه ومشربه ولحوه فهو في كل ذلك مقتصد اقتصاده في ثيابه وما يتخذ من مركب أو خادم أو جارية . وهوايته التي تستنفد وقته هي محبة العلم وتحصيله والإكباب عليه إكباباً شديداً : إكباب على القراءة ولقاء العلماء وإكباب على التأليف ، حتى ضعف بصره وشلت يده ، وأصبح يستعين بمن يقرأ له ويكتب . وعلى هذه الشاكلة يعرفنا الرازي أولاً بسيرة الفيلسوف المثالية ، ثم يطبقها على نفسه ، ليرى قارنه أنه يسير سيرة القوم في حياتهم العلمية والعملية . وكان الرازي حقاً مثلاً

ممتازاً للفيلسوف ، الذى يأخذ نفسه بما ينشر من آراء وأفكار .

وإذا كان الرازى تأثر بجالينوس فى كتابته لسيرته الفلسفية وما قصه عن سلوكه وتأثر من قبله حنين بن إسحق بما كتبه عن بعض محنه ، فإن من خلفهما من المتفلسفة تأثر به مباشرة فى كتابيه : « مراتب قراءة كتبه » و « فينكس كتبه » فأخذوا يكتبون لأنفسهم تراجم شخصية يعرضون فيها نشأتهم الفلسفية . وما صنفوه وألفوه من كتب مختلفة .

٢

ابن الهيثم

متفلسف عراقي ولد بالبصرة سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م وعنى منذ صغره بالعلوم الطبيعية والرياضية . وبرع فى الأخيرة براعة منقطعة النظير ، حتى أصبح أكبر علمٍ فيها لعصره . وقرَّبه لذلك حاكم بلدته ، وجعله من كبار رجال دولته ، لكنه سرعان ما عزف عن الوظيفة السياسية وانقطع للدرس والبحث . ويقال إنه سمع بنهر النيل وزيادته ونقصانه الدائنين . فقال إنه يستطيع أن يتحكم فيه بالزيادة والنقص ، ونُقل ذلك إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى المعروف ، فاستدعاه لتحقيق ذلك ، ولبَّىَّ دعوته ، إلا أنه حين عاين النيل ودرَّسه انكسرت همته ، وعرف أن أمره لا يجرى حسب ما ظنه . فاعتذر للخليفة ، وقبل عذره ، وعينه ببعض الدواوين ، وقبيل ذلك خوفاً من بطشه المشهور عنه لا رغبة فى الوظيفة ، ثم أجال فكره فى أمر يتخلص به منه ، فلم يجد وسيلة إلى ذلك إلا إظهار البله والتخبال ، فصُرف عن عمله ، وظل على هذه الصورة المشوشة حتى توفى الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه من التأليف

والاشتغال بالفلسفة والرياضة ، حتى وافاه أجله سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م .
 واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء »
 برسالة نقلها من خطه . وهي مقالة فيما صنعه وصنّفه من علوم الأوائل إلى آخر
 سنة سبع عشرة وأربعمائة للهجرة . والمقالة بعنوانها تتصل مباشرة بما كتبه
 جالينوس عن كتبه ومصنفاته مما قدمنا عنه الحديث في التمهيد، وهو يستهلها على
 هذا النمط .

« إنى لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك
 كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى . فكنت متشككاً في جميعه موقناً بأن الحق
 واحد وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور
 العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق . ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به
 تنكشف تموهات الظنون . وتتشع غيابات المتشكك الفنون . وبعثت عزيمتى
 إلى تحصيل الرأى المقرب إلى الله جل ثناؤه ، المؤدى إلى رضاه . الهادى إلى
 طاعته وتقواه . فكنت كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه ” فى حيلة
 البرء “ يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهياً لى منذ صبأى — إن شئت قلت
 باتفاق عجيب : وإن شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالحنون ، أو
 كيف شئت أن تنسب ذلك — أنى ازدريت عوام الناس ، واستخففت بهم ولم
 ألتفت إليهم . واشتهيت إثثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال
 الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين . فخضعتُ
 لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم انديانات فلم أحظ من شىء
 منها بظائل . ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا إلى الرأى اليقيني مسلكاً جديداً
 ” واضحاً “ له . فرأيت أننى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور
 الحسية وصورتها الأمور العقلية . ولم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسططاليس من
 علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات التى هى ذات الفلسفة » .
 وواضح من هذا المطلع لترجمة ابن الهيثم أنه شغل منذ أول أمره باختلاف

الفِرَق ، وقد اهتدى بفطرته إلى أن الحق واحد وأن الاختلاف بين الطوائف والملة والمذاهب إنما هو في طريق الوصول إليه ، واقتنع بأن معرفة الحق هي التي تقربه إلى ربه ، فبعث عزيمته إلى هذه المعرفة التي لا تنال إلا بالعلم . وبذلك تحددت وسيلته وغايته . فهو يتوسل بالعلم إلى معرفة الحق الذي يرضى الرب ويهدي إلى طاعته وتقواه . وحاول ذلك أولاً عن طريق كتب الآراء والاعتقادات فلم يحظ بطائل ، وهدهاه تفكيره إلى أنه لن يصل إلى الحق إلا عن طريق آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، وبحث عن هذا الطريق فلم يجده إلا في كتب أرسططاليس وما رسمه في المنطق والطبيعيات والإلهيات . وكل ذلك معناه أنه كان ينزع في تفكيره الفلسفي منزعاً دينياً ، وتشهد بذلك مؤلفاته ، فهو يردّ فيها على منكري النبوات والمارقين عن الدين مثل ابن الراوندي . وهو يعلن إيثاره لكتب أرسطو على كتب غيره من الفلاسفة فقد وجد فيها ضالته ، وهي الربط بين الأمور الحسية ربطاً ينتهي بها إلى الصور العقلية التي كان ينشدها .

ونراه بعد هذه المقدمة يتحدث عن كتب أرسططاليس في المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات حديثاً تفصيلاً يصور فيه كيف أن أفكارها تتسلسل ، فتسلم كل حلقة إلى أختها ، حتى تنتهي إلى الإلهيات . وقد استقرت في عقولنا الفروع والأصول . وابن الهيثم دقيق كل الدقة في فهمه لفلسفة أرسططاليس التي لم تكن تعتمد على شيء مثالي أو خيالي على نحو ما هو معروف عن أستاذه أفلاطون ، إنما كانت تهتم بالمحسوسات أو قل إنها كانت تبدأ منها ، ولم يكن يدرس العام ليتحول منه إلى الخاص ، بل كان يدرس الخاص ليتحول منه إلى العام ، فهو يبدأ بالجزئيات ثم يتحول إلى الكلّيات .

وانتفع ابن الهيثم بهذا المنهج في تفكيره الرياضي ، فلم يقف به عند التفكير النظري أو التفكير الكلي العام ، بل أخذ يعني بالجزئيات وبالتجارب ليصل من ذلك إلى نظرياته وآرائه في فلسفة الضوء وغيره ، واستطاع أن يسجل ملاحظات

نفسية هامة في الإبصار والإدراك الحسى ، وبذلك أخذت الأبحاث الرياضية عنده شكلاً علمياً قائماً على الفحص والتجربة ، ولم تضلّ في أعماق أومتاهات وراء المادة ، فقد تلقن كما يقول هنا في هذه المقالة البديعة أن يهتم بالحسّ بل أن يبدأ به دائماً ، وأن لا يتكلم فيما ليس له مشخصات في الخارج وإلا كان كمن يرقم في الماء . فالتفكير الرياضى ليس شيئاً وهمياً ولا خيالياً . . وإنما هو آراء مستنبطة من تحليل الظواهر المادية . وبهذا التفكير المستقيم المستمد من فلسفة أرسططاليس الطبيعية الواقعية أصبح ابن الهيثم أكبر رياضى عرفه العالم الإسلامى .

وزاره بعد تحليله لفلسفة أرسططاليس يعلن إعجابه الشديد بها وأنه تعلق بأصولها ومبادئها ، يلخصها تارة ويشرحها تارة أخرى ، رياضة لفكره ورجاء أن ينتفع بها غيره من الناس ، وليجد فيها ذخراً ومتمعة لوقت شيخوخته ، يقول :

« وأنا ما مُدّت لى الحياة باذلُ جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك متوخياً به أموراً ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياى وبعد وفاتى ، والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم . والثالث أنى صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم ، فكنت فى ذلك كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه "فى حيلة البرء" : إنما قصدت وأقصد فى وضع ما وضعته وأضعه من الكتب لى أحد رجلين ، إما لى نفع رجل أفيده إياه ، وإما أن أتعجل أنا فى ذلك رياضة أروض بها نفسى فى وقت وضعى إياه وأجعله ذخيرة لوقت الشيخوخة » .

ثم يأخذ ابن الهيثم فى شرح مصنفاته فى الأصول الأرسططالية الثلاثة ، ويذكر أن ما صنّفه فى العلوم الرياضية حتى هذا التاريخ الذى كتب فيه تلك الترجمة وهو سنة ٥٤١٧/١٠١٦ خمسة وعشرون كتاباً ويخصيها واصفاً لكل منها . وأكثرها يدور فى الأصول الهندسية والعددية أو الحسابية ، ومنها ما يدور فى الفلك ورصد النجوم . وقد جعلته نزعته الدينية يخلص سمت القبلة فى جميع المسكوتة برسالة

خاصة ، كما كتب رسالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية .

ثم أحصى بعد ذلك كتبه في العلوم الطبيعية والإلهية . وذكر أنها أربعة وأربعون كتاباً ، ووصف طائفة منها . والصلة واضحة فيها بين أرسطو وبينه ، فهو تارة يلخص بعض كتبه ومقالاته وتارة يرد على من نقضوا بعض أقواله وآرائه . ومن بين ما ذكره رسالة في بطلان ما يراه المتكلمون من أن الله لم يزل غير فاعل ثم فعل . ورسالة أخرى بعنوان أن فاعل هذا العالم إنما تُعلم ذاته من جهة فعله . والرسالتان جميعاً تصوران نزعة الدينية وأنه كانت له مشاركة في أبحاث علم الكلام . ثم يُنهي رسالته بقوله :

« ذلك سوى رسائل ومصنفات عدّة حصلت لي في أيدي جماعة من الناس بالبصرة والأهواز ضاعت دساتيرها . وقطع الشغلُ بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نسخها . وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء . فقد اتفق مثله لجالينوس ، حتى ذكر ذلك في بعض كتبه . فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة ودفعت دساتيرها إلى جماعة من إخواني وقطعتي الشغل والسفر عن نسخها . حتى خرجت إلى الناس من جهتهم . وإن أطال الله لي في مدة الحياة وفتسح في العمر صنفت وشرحت وخلصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد في نفسي . وبيعتني ويحطني على إخراجها إلى الوجود فكري ، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ويده مقاليد كل شيء . وهو المبدئ والمعيد . وهذا ما يجب أن أذكره في معنى ما صنعته واختصرته من علوم الأوائل . قصدت به مذاكرة الحكماء الأفاضل . والعقلاء الأمثال . . . وقلت في ذلك كما قال جالينوس في كتابه « في النبض الكبير » : ليس خطابي في هذا الكتاب لجميع الناس بل خطابي لرجل منهم يوازي ألوف رجال بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفهم الفاضل منهم ، ليعرفوا رتبتي في هذه العلوم ويتحققوا منزلتي من إثبات الحق ومن طلب القرابة إلى الله في إدراك العلوم والمعارف

النفسية .. فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور
الدينية ، والعدل هو محض الخير ، والذي يفعله يفوز من العالم الأرضي بنعيم
الآخرة السماوى ، ويعتاض عن صعوبة ما يلقاه من ذلك مدة البقاء المنقطع في
دار الدنيا بدوام الحياة منعماً في الدار الأخرى . وإلى الله تعالى أرغب في توفيقى
لما قرّب إليه ، وأزلف لديهِ .

ويذكر ابن أبى أصيبعة أنه وجد في نهاية الرسالة تاريخ كتابتها وهو
ذو الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويذكر بعقبه ما ألفه ابن الهيثم إلى سلخ
جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وأربعمائة . ويتلو ابن أبى أصيبعة هذه المؤلفات
الجديدة بفهرس وجده لكتب ابن الهيثم إلى آخر سنة تسع وعشرين أى إلى ما
قبيل وفاته بمدة قصيرة . وبلغت كتبه ومقالاته في هذا الفهرس الأخير نحو مائتى
كتاب ومقالة . وهو إنتاج ضخم يدل على مدى ما قام به ابن الهيثم في أبحاث
الفلسفة الإسلامية من جهد مُضْن . وهو جهد خصب قدره الأوربيون منذ
العصور الوسطى ، فترجموا كثيراً من آثاره إلى اللاتينية . كما نقلوا آراءه وأفكاره
إلى لغاتهم الحديثة .

ابن سينا

أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق، ولد لأسرة إيرانية سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م بالقرب من بخارى، وكان أبوه يتصرف في أعمال قرية خرم ميسن للسامانيين، وكان بجانبها قرية تسمى أفشنة تزوج منها، وسكن فيها، وبها ولد له هذا الفيلسوف العظيم. وقد عني به منذ صغره، فأحضر له المعلمين، ووجهه إلى دراسة الحساب والفلسفة، ولم يلبث أن تيقظت في الصبي مواهبه، فأقبل على دراسة الطب وما ترجم عن اليونان، وتمثل كل ذلك، كما تمثل كثيراً من معارف العرب والفرس والهند. ثم تحول يؤلف مستغلاً كل ما عرفه من مناجم الشرق والغرب، وكاد لا يترك ميداناً من ميادين المعرفة إلا ألف فيه، فألف في الطب والطبيعة وعلم الأحياء، وفي الفلك والرياضة والكيمياء، وفي المنطق والأخلاق والسياسة والتصوف وعلم الكلام، ومن أدم ما اشتهر من كتبه في الفلسفة «النجاة» و«الشفاء» ونال شهرة مدوية في الغرب بكتابه «القانون» في الطب، إذ كان مرجع القوم حتى القرن السادس عشر.

وقد أثر ابن سينا تأثيراً عميقاً في مجال الفكر الفلسفي الإسلامي، وكان تأثيره في الفكر الأوروبي واسعاً، فقد تُرجم له غيرُ كتاب إلى اللاتينية، حتى إذا كان العصر الحديث عني به المستشرقون في اللغات الأوروبية المختلفة، وكتبوا في فلسفته أبحاثاً واسعة. ومن حين قريب أقيمت الاحتفالات لعيده الأثني في الشرق والغرب تقديراً لما قدم من خدمات للعلم والفلسفة والفكر الإنساني، مما جعله فخرًا لقومه والعرب، بل للإنسانية والحضارة العالمية. ولا عجب أن لُقِّبَ منذ عصره بالشيخ الرئيس.

وخلف ابن سينا كثيراً من المؤلفات والمقالات التي تعد بالمئات، كما خلف ترجمة ذاتية قصيرة يجدها القارئ في ابن أبي أصيبعة، وصف بها شطراً من حياته منذ عني أبوه بتعليمه إلى السنة الثانية والثلاثين من عمره. وهي تجرى على هذا النمط :

« قال الشيخ الرئيس : إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ . وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور الساماني أمير هذا الإقليم ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرهيش من ضياع بخارى . وهي من أمهات القرى وبقرها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدتُ منها بها . ثم ولدتُ أخي . ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرتُ معلم القرآن ومعلم الأدب . وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيتُ على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يُقضى مني العجب . وكان أبي محمد أجاب داعي المصريين ، ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي . وابتدعوا يدعونني أيضاً إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ (أبي) يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناطلي وكان يُدعى المتفلسف ، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين . وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على الحبيب ، على الوجه الذي جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجي على الناطلي . ولما ذكر لي حدّ الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالذات في جواب ما هو ؟ ، أخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب مني كل العجب ، وحدّث والدي من شغلي بغير العلم . وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده

فيها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المحسطنى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى: تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرضها علىّ لأبيّن لك صوابها من خطئها ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب . وأخذت أحلّ ذلك الكتاب ، فكيم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهّمته إياه . ثم فارقتى الناتلى متوجّهاً إلى كركانج . واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعى والإلهى . وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

فابن سينا يقول إن أباه كان من موظفى الدولة السامانية وأنه نشأ فى بخارى عاصمتهم ، وقد أحضر له المعلمين يعلمونه العلوم الشرعية واللغوية ، فحفظ القرآن وكثيراً من الأشعار ، وأظهر ذكاء نادراً ، ويقول إن أباه كان يؤمن بمبادئ الشيعة الإسماعيلية وما يقولونه فى النفس والعقل وإذنه كان يعرف أطرافاً من الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وكذلك كان أخوه . وكانا يجرّانه إلى معتقدهما الإسماعيلية فكان يزورّ عنه ولا يجد له قبولاً فى نفسه . وظل على ذلك بقية حياته ، يخفّو الشيعة ومذاهبهم ، ويؤمن بما يؤمن به أهل السنّة من معتقدات .

وجّهه أبوه إلى تعلم الحساب والعلوم الشرعية ، فأتقنهما ، وتصادف أن ألمّ ببخارى متفلسف يدعى الناتلى فأنزله أبوه داره ، وألحق به ابنه ليخرّجه فى العلوم العقلية والفلسفية ، وكان أول ما تلقن منه المنطق فى كتاب إيساغوجى ، ولم يكدمضى معه فيه حتى لفته بذكائه الخارق ، وعكس الموقف ، فكان ابن سينا

يشرح لأستاذه المسائل والدقائق . واكتفى بما عند أستاذه في الفن وتحول يطالع الكتب والشروح حتى حذقه ومهر فيه ، وكذلك كان شأنه مع أستاذه في كتاب أقليدس الخاص بعلم الأشكال الهندسية ، فإنه قرأ معه خمسة أشكال أو ستة ثم استقل بالكتاب . وصنع نفس الصنيع بكتاب المجسطى لبطليموس ، وهو في علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك . ولم يكن التالي يفهم مسائل هذا الكتاب حتى الفهم فكان يصورها ويشرحها له . ثم فارقه التالي فاشتغل بتحصيل الكتب وحده . ورغب في علم الطب ، فقرأ كتبه المؤلفة ، ولم يلبث أن برز فيه وأصبح مرجع المشتغلين به . وانفتح عليه كثير من أبواب المعالجات عن طريق التجربة . وهو في ذلك لا ينسى حظه من الدراسات الفقهية . وأصاب كل هذا الذبوع وسنه لم تتجاوز السادسة عشرة . ويقول :

« ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره . . . وكلماتي أتحررت في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهمت إلى مبدع الكل ، حتى فُتِح لي المعلق وتيسر المتعسر . وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب . ريثما تعود إلى قوتي . ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام . ” وما زلت “ كذلك حتى استحکم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني . وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي . ثم عدلت إلى الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه . والتبس عليّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة . وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به . وأيسست من نفسي ، وقلت هذا كتاب لاسيبل

إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلدٌ ينادى عليه ، فعرضه عليّ . فرددته رد متبرم ، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم ، فقال لي : اشتر مني هذا ، فإنه رخيص ، أبيعك بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته . فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتي ، وأسرعت في قراءته ، فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكرًا لله تعالى . وكان سلطان بخاري في ذلك الوقت نوح بن منصور - توفي سنة ٣٨٧/٩٩٧م - واتفق له مرض تلجٌ "تردد" الأطباء فيه ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة . فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه إحضاري ، فحضرت ، وشاركهم في مداواته . وترسّمت بخدمته ، فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب . فأذن لي ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت منها كتبُ العربية والشعر . وفي آخر الفقه . وكذلك في كل بيت كتبٌ علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيت من قبل ولا رأيت أيضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانين سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفَظَ . ولكنه اليوم معي أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء .» .

وهذه القطعة تتم سابقتها وترينا أن عقل ابن سينا نضج مبكراً ، وهو هنا يقول إنه توفّر نحو سنتين على قراءة المنطق والفلسفة بفرعها المختلفة ، يقرأ على نفسه ويفهم بدون معلم ، وكان كلما تحير في مسألة تردد إلى الجامع وصلى متهلاً إلى ربه أن يفتح له ما استغلق عليه . وكان يعكف في الليل على الكتابة

والقراءة ، وكلما غلبه النوم أو شعر بفتور تناول قدحاً من الشراب ، حتى تعود إليه قوته . ولعل في هذا ما يشير إلى ما اشتهر به من إغراقه في اللذات مما خالف فيه سيرة الفلاسفة الأقدمين وسيرة متفلسف مثل الرازي وابن الهيثم معاصره . ويقول إنه بلغ من شدة تعلقه بالمسائل الفلسفية ومشكلاتها أنه كان يحلم بها ، وربما وجد حلّ بعض المشكلات في ذومه . ومعنى ذلك أن عقله الباطن كان يشرك عقله الظاهر في الانشغال بمسائل الفلسفة ، حتى كانت نترأى له في الحلم بأعيانها . وما زال مثابراً حتى حذق المنطق والطبيعيات والرياضيات ، وانتقل من ذلك إلى ما وراء الطبيعة من الإلهيات ، فاستغلقت عليه . ولم تفتح له مسائلها بتاتاً . حتى ينس من نفسه ، وبينما هو في هذا اليأس يقع له كتاب للغرابي ، فيحل له كل المسائل والمشاكل في الفلسفة الإلهية . وابن سينا بهذا التصريح يطلعنا على مصدر مهم من مصادر ثقافته الفلسفية .

ويتصادف أن يمرض سلطان بخارى . ويعجز الأطباء عن شفائه ، ويشيرون عليه باستحضار ابن سينا ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ، ويستأذنه في دخول مكتبته التي جمعها هو وآباؤه من السامانيين ، فيأذن له ، ويدخلها فيجدها مليئة بالنفائس والذخائر في جميع الفنون والعلوم وما كتبه الفلاسفة الأوائل ، فيعب منها عباً . ويمتلىء منها امتلاء . وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة . ويلاحظ أن معارفه تمت في هذا الحين . وطارت شهرته في الناس من حوله ، فأخذوا يطلبون إليه أن يؤلف لهم بعض الكتب . يقول :

« وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسين العروضي فسألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم ” الفلسفي “ فصنفت له المجموع .. أتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري . وكان في جواري أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي فقيه النفس متوحد في الفقه والتفسير والزهد مائل إلى هذه العلوم : فسألني شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصل في قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له في الأخلاق كتاباً

سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده . إذ لم يُعَرِّ أحدًا ينتسخ منهما . ثم مات والدى وتصرفتُ بي الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان . ودعتني الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج . وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً . وقدمت إلى الأمير بها وهو علي بن مأمون . وكنت على زى الفقهاء .. وأثبتوا لى مشاهرة دائرة بكفاية مثلى . ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نَسَا ومنها إلى أبيبورد . ومنها إلى طوس ومنها إلى شَقَّان ومنها إلى سَمَنان ومنها إلى جاجَرَم رأس حلد خراسان . ومنها إلى جرجان ، وكان قصدي الأمير قابوس ، فاتفق في أثناء هذا أخذُ قابوس وحبيه في بعض القلاع وموته هناك . ثم مضيت إلى دهستان . ومرضتُ بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان . . وأنشأت في حالي قصيدة ، فيها بيت التائل :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى لما غلا ثمنى عدمتُ المشتري «

وحى الآن لم يكن ابن سينا قد ألف كتبه الفلسفية والطبية الكبيرة . ولكن سيرته الشخصية تنهى . ويكتب لنا بقية ترجمته تلميذه أبو عبيد الجورجاني الذي لازمه في جورجان وكانت سنة حينئذ اثنتي عشرة وثلاثين . وظل معه : ولم يفارقه بقية حياته . وقد ذكر لنا ابن سينا في هذه القطعة الأخيرة أنه تقلد بعض أعمال السامانيين . ثم دعت الضرورة إلى التحول عن بخارى . ولا يفصح عن هذه الضرورة ، ولم تكن سوى استيلاء محمود الغزنوي عليها واستئصاله لشأفة السامانيين منها . وانتقل ابن سينا إلى كركانج عاصمة إمارة خوارزم . وتحدثنا كتب التاريخ أن محموداً الغزنوي طلبه من أميرها . فرفض صاحبنا وهرب في البلاد التي سمّاها . وبذلك تخلص من قبضة الأمير الغزنوي . وما زال في هربه وفراره حتى وصل إلى جرجان والتي فيها بتلميذه أبي عبيد . ولم يشأ ابن سينا أن يعرفنا بهذه التفاصيل السياسية . وظل بقية حياته ينتقل من بلاط أمير في إيران إلى بلاط أمير آخر مشتغلاً بالشؤون السياسية وتدبير أمور الإمارات حيناً . وبالتعليم والتأليف والتصنيف حيناً آخر ، حتى لبّيت نداء ربه في همدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م .

متفلسفة مختلفون

ما بين أيدينا من أخبار المتفلسفة وخاصة المتطبيين منهم يدل على أن غير واحد من جهابذتهم عني بترجمة حياته وحكاية سيرته ، أخذاً بسنة جالينوس في القديم وما قدمنا من أمثلة عند حنين بن إسحق ومحمد بن زكريا الرازي وابن الهيثم وابن سينا .

وقد احتفظ ابن أبي أصيبعة بترجمتين شخصيتين لعلى بن رضوان الطبيب المصرى وعبد اللطيف البغدادي ، والأول أشهر أطباء مصر في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولد في الحيزة لرجل فقير كان يعمل فترّاناً ، ولا رأى في ابنه معالم النجابة عني به ، فأسلمه إلى بعض المعلمين ، ولم يلبث أن نقله إلى القاهرة وهو لا يزال في العاشرة ، ليكمل فيها تعلمه . وفي سن الرابعة عشرة وجد في نفسه ميلا شديداً إلى تعلم الطب والفلسفة ، فعكف عليهما . يقول ابن رضوان :

« ولم يكن لى مال أنفق منه ، فلذلك عرض لى في التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم ، ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فأني اشتهرت فيها بالطب . وكفاني ما كنت أكسبه بالطب ، بل كان يفضّل عني إلى وقتي هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتي أملاً كآ في هذه المدينة .. وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيّرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم في صناعتى بمقدار ما يبغي من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء

أقصد به حفظ الصحة . وأجتهد في حال تصرفي في التواضع والمداراة وغيث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج . وأجعل قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الحميدة . ولا بد أن يحصل مع ذلك كسب ما يُنفع ، فأنتفح منه على صحة بدني وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير ، ولا تنحط إلى التقدير ، وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه العقل في كل وقت ، وأتفقد آلات منزلي ، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته ، وما يحتاج إلى بدل بدله . . . وأتعرف ما يمكنني تعريفه من الأمور المزمعة وأخذ له أهيته ، وأجعل ثيابي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة . وألزم الصمت وكف اللسان عن معائب الناس ، وأجتهد أن لا أتكلم إلا بما ينبغي . وأتوقى الأيتمان ومثالب الآراء ، فأحذر العجب وحب الغلبة ، وأطرح الهم الحرصي والاعتماد ، وإن دهمني أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى ، وقابلته بما يوجبه العقل من غير جبن ولا تهور . ومن عاملته عاملته يدأ بيد . لا أسلف ولا أتسلف إلا أن أضطر لذلك ، وإن طلب مني أحد سلفاً وهبت له ولم أريد منه عوضاً . وما بقي من يومى بعد فراغى من رياضتى صرفته في عبادة الله سبحانه . . . وأتدبر مقالة أرسططاليس في التدبير وأخذ نفسى بلزوم وصاياه بالغداة والعشى . وأتفقد في وقت خلوتي ما سلف في يومى من أفعالى وانفعالاتى ، فما كان خيراً أو جميلاً أو نافعاً سررت به ، وما كان شراً أو قبيحاً أو ضاراً اغتممت به ، ووافقت نفسى أن لا أعود إلى مثله . »

ثم يذكر لنا ابن رضوان الكتب الفلسفية والطبية التي كان يعنى بقراءتها ويستهدى بها ، ولا يسرد علينا فهرست مؤلفاته إنما يسردها ابن أبي أصيبعة . وواضح مما نقلناه من سيرته أنه عنى فيها بالحديث عن سلوكه . وهو سلوك فاضل يقوم على الاعتدال في كل شيء ، ومن طريف ما ذكره أنه كان يعد السلف تلقاً غير راجع ، وأنه كان حين يسلف يظن نفسه واهباً ولا ينتظر بعد ذلك الرجوع في هيبته . ولعل من الغريب أن هذه السيرة المعتدلة تخالف كل المخالفة ما عرف عنه في مؤلفاته من تشنيه على سابقه ومعاصره ، أمثال حنين بن

إسحق ومحمد بن زكريا الرازي من السابقين وابن بطلان البغدادي من المعاصرين ، ولكن لعل هذا الخلق الجلامح في تأليفه لم يكن خلقه في سلوكه وحياته بين الناس . وسيرة عبد اللطيف البغدادي التي نقلها عنه ابن أبي أصيبعة لا تتجه هذا الاتجاه من حيث حكاية السلوك الشخصي ، وإنما تتجه إلى حكاية تعلمه وتنقله في البلاد ، فقد رحل إلى الموصل ، ومنها إلى الشام ، حيث حاول الاتصال بصلاح الدين الأيوبي ورجاله من أمثال القاضي الفاضل ، وتوجه إلى مصر ، ثم عاد إلى الشام ، واتصل بعد وفاة صلاح الدين بابنه العزيز ، ودخل مصر في ركابه ، ثم تحول إلى الشام وتغلغل في آسيا الصغرى ، ورجع أخيراً إلى حلب . وهو يقص علينا ذلك كله منوهاً بفضل علمه ومعرفته في الطب وغيره ، ويبدأ حديثه أو سيرته بأنه ولد في بغداد بدرب الفالوذج سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وقد أخذه أبوه بالتعليم منذ نعومة أظفاره ، فسمع الحديث النبوي ، ونال فيه إجازات مختلفة . وأثناء ذلك حفظ القرآن الكريم وفصيح ثعالب ومقامات بديع الزمان والحريري وديوان المتنبي ومختصراً في الفقه وآخر في النحو . واختلف في دروس العلم الأخير إلى ابن الأنباري وغيره ، ويقول إنه أكبّ على كثير من أمهات اللغة والنحو ومشكل القرآن وكتب الغزالي ، ثم انتقل إلى كتب ابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية ، ولم يزل على ذلك إلى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م فتحول عن بغداد إلى الموصل ، وهناك بدأ الاشتغال بالتدريس ، فأعجب به الناس — كما يقول — لسعة محفوظه وسرعة خاطره . وظل على ذلك عاماً ، ثم دخل دمشق ، وفيها ناظر العلماء ، وغلّبهم بحجة لسانه ، وألف بعض كتب في الحديث والنحو وعلم الكلام .

ويحكى أنه توجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا ، وهو يحاصرها ، محاولاً أن يستردها من أيدي الصليبيين . وتعرّف على القاضي الفاضل ؛ يقول : « ودخلنا عليه فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه

في إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه . وسأله القاضي الفاضل عن مقصده ، فقال له إنى أريد مصر ، فكتب له ورقة صغيرة إلى وكيله بها ، وكان ابن سناء الملك الشاعر المصرى المشهور ، فأكرمه وأنزله داراً جاءت فيها الهدايا والصلوات من كل جانب . ويقول إنه كان يريد أن يلتقى بمصر بثلاثة أشخاص من المتفلسفة هم ياسين السيمائى وموسى بن ميمون اليهودى وأبو القاسم الشارعى ، والتقى بهم ، ولم يعجب بأولهم إذ وجدته مشعبداً ، أما موسى فوجده فاضلاً لا في الغاية ، وقرأ له كتاباً في الطب ، وقال إنه نقله عن جالينوس وغيره دون زيادة ، وأما أبو القاسم فوجده يسير سيرة الحكماء العقلاء لا يشغله شيء عن طلب الفضيلة ، قيماً بكتب القدماء وما كتبه الفارابى ، ويزعم أنه كان إذا تناقش معه غلبه بقوة الجدل وفضل اللسن ، ويغايه أبو القاسم بقوة الحجج وظهور الحجج . ثم عاد إلى القدس وألم بصلاح الدين ، ووصفه ، فقال : « رأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، سهلاً مجيباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى : ” وزرعنا ما فى صدورهم من غيلٍ ” . وأول ليلة حضرتُه وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم ، يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه فى ذلك . . وكان مهتماً فى بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل ” وزيراه ” ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر » .

وقرر له صلاح الدين وأولاده راتباً بدمشق ، فكث بها سنوات مكبناً على الاشتغال بالعلم والتحصيل وإقراء الناس بالجامع ، حتى أتيح له أن يعود إلى مصر مع سلطانها العزيز سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م ؛ فلزم الشيخ أبا القاسم الشارعى وأجرى عليه السلطان ما يكفيه ، وكان يقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ عليه الطب وغيره ، ويرجع الترجمة الشخصية

آخر النهار إلى الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفي الليل يشتغل بالقراءة والتأليف .
وحدثت في مصر وباء وغلاء فاحش فوصفه ، ووصف آثار الأقدمين ومختلف
الشئون الاجتماعية والعمرائية بمصر ، وذلك في رسالته المشهورة التي سماها « الإفادة
والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وتحدث عما
تختص به مصر من النبات والحيوان حديث العالم المتفلسف والطبيب الحاذق .

ولما ملك مصر السلطان العادل توجه إلى القدس وأقام بها مدة ، يشتغل عليه
الناس فيها بكثير من العلوم ، وصنف غير كتاب ، ثم زایلها إلى دمشق سنة
٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وأقبل عليه التلاميذ من كل حدب يأخذون عنه مختلف
العلوم وخاصة علم الطب الذي برع فيه ، وقد صنف فيه كتباً كثيرة حتى عُرف به .
ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد آسيا الصغرى وعاد منها إلى حلب ثانية وهو دائم
التأليف والتصنيف ، مقبل على التدريس وإفادة الطلاب والتلاميذ .

وإنما لخصنا هذه السيرة تلخيصاً ، وهي طويلة ، فليرجع إليها في كتاب طبقات
الأطباء لابن أبي أصيبعة من أراد . وحين نعم النظر نجد كثيراً من تراجمه
تُنقَل أخبارها مباشرة عن أصحابها ، فهي أشبه بتراجم شخصية وإن لم تكتب
في شكل سيرة ذاتية .

ومن المحقق أن كثيراً من تراجم المتفلسفة الشخصية فُقدت وضاعت في
الطريق ، ومن طريف ما أثر عنهم ترجمة السمومول بن يحيى المغربي لنفسه ، وكان
يهودياً فأثار الله بصيرته واعتنق الإسلام ، وهو يقص علينا في ترجمته كيف
بزغ له نور الحق وأضاء جوانب نفسه فأسلم وجهه لله ، ويستهلها بتعريفنا
بأبيه وأنه كان من مدينة فاس بالمغرب ومن أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة واللسان
العبري ، وترك هذه المدينة إلى بغداد ، وفيما تزوج من أمه اليهودية . وشغله أبوه في
أول نشأته بالكتابة بالقلم العبري وعلوم التوراة وتفسيرها حتى إذا بلغ الثالثة عشرة
اختلف إلى معلمى الحساب والزيجات والطب والحساب الديواني وعلم المساحة والجبر
والهندسة وغير ذلك من العلوم الرياضية ، وشغف أكثر ما شغف بالطب وفنون

العلاج ، ويقول إنه اخترع أدوية لم يسبق إليها .
ثم يذكر أنه قبل اشتغاله بهذه العلوم كان معنياً بالحكايات والأسفار والخرافات ؛
ثم مال إلى قراءة كتب التاريخ من مثل تجارب الأمم لابن مسكويه والطبرى ، وكانت
تمر به أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وما ظهر على يده من المعجزات
وخصه الله به من الكرامات ، وحباه به من النصر والتأييد فى الغزوات . ودفعه
ذلك إلى تتبع سيرة الرسول ، فعرف أنه نشأ يتيماً ضعيفاً ، على خلق عظيم ، وبعث فى
قومه ، فجاهدهم ودعاهم بالموعظة الحسنة ، وهم يعادونه ويعاندونه ، حتى أذن
له فى الهجرة إلى غير دارهم ، فهاجر إلى المدينة ، ومن هناك أخذت أشعة
الإسلام تنطلق فى دروب الجزيرة العربية ، وفتحت مكة ، ودخل العرب فى دين
الله أفواجاً ، ثم انساحوا يفتحون البلاد ، فهزموا فارس والروم .

ويقول السموعل إن اطلاعه على هذه السيرة النبوية الذكية هو الذى جعله يؤمن
بالإسلام ، وكان مما بعثه على هذا الإيمان القرآن الكريم وما يتضمن من بلاغة
فوق مستوى البشر . وأخذ يراجع نفسه ، متأملاً فى اختلاف الناس فى الديانات
وطالع الفصل الخاص بـبِرَزْوِيَه فى كتاب كليله ودمته ، وقد سبقت الإشارة
إليه ، وهداه هذا الفصل إلى تحكيم عقله ، فرأى الناس إنما يؤمنون بعامة
الأنبياء عن طريق ما يرويه السلف عنهم رواية تواتر ، وأن الأنبياء فى ذلك
متساوون ، فما دمنا قد سلمنا بالنبوة ، وصدقنا نبياً وجب أن نصدق الآخرين .
يقول :

« لا يجوز للعاقل أن يصدق واحداً ويكذب واحداً من هؤلاء الأنبياء عليهم
السلام ، لأنه لم ير أحدهم ، ولا شاهد أحواله إلا بالنقل ، وشهادة التواتر موجودة
لثلاثتهم ، ” موسى وعيسى ومحمد“ فليس من العقل والحكمة أن نصدق أحدهم
ونكذب الباقين ، بل الواجب عقلاً أن نصدق الكل ، فأما تكذيب الكل فإن
العقل لا يوجبه أيضاً ، لأننا إنما نجدهم أتوا بمكارم الأخلاق وندبوا إلى الفضائل
ونهاوا عن الرذائل ، ولأننا نجدهم قد ساسوا العالم سياسة بها صلاح أهله . فصَحَّ

عندى بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام وآمنت بهما .
 ثم يقص رؤيا رأى فيها أحد أنبياء بنى إسرائيل . وفيها أقرأه آيات
 من التوراة تشير إلى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونام عقبها ، فرأى صاحب
 الرسالة المحمدية يدعوه إلى الإسلام ، فدخل فى دين الله وهو شديد الفرح
 والسرور بما انكشف له من الهداية . وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .
 ومن غير شك وراء هؤلاء المتفلسفة الذين عنموا بترجمة حياتهم ممن ذكرناهم
 كثيرون سرردوا أخبارهم وقصصوا حياتهم ، ولكن أكثر ذلك سقط من يد الزمن
 ولم تبق إلا هذه السير القليلة التى تحدثنا عنها هذا الحديث المجمل .